

المحاطفة وارتباطها بالادب^(١)

للاستاذ عبد الحميد حسن (٢)

قد علمنا أن الأدب هو نوع من الانتاج العقلي وانا إنما نحرص على الرائع منه وعلى ماله شأن في حياة الفرد وخير الامة فالغاية من الادب أن يكون غذاء لخير ما في الفرد من صفات ونزعات وحافزا الى عظيم الشيم ومعبرا تعبيرا صادقا عما يتجلى في البيئة الطبيعية والاجتماعية . وأن الادب الذي نحرص عليه هو الذي يتفد الى الحياة فيجلى أسرارها ويظهر محاسنها وينمى خير ما فيها ، وهو الذي يتصل بالرفيع السامى بما فى النفس الانسانية ، وهو الذى يمدنا بما يملأ قلوبنا إعجابا وروعة ويجد فيه الجبل الحاضر والاجيال القادمة غذاء عقليا يسمو بنفوسهم فكيف نصل الى أن نجعل الوان الانتاج الادبي وموضوعاته محقة لهذه الاغراض السامية؟

ليس لهذا الانتاج قوانين تحظر أنواعا وتتيح أخرى فان الانتاج الادبي لا رقيب عليه ، وكل أديب أو متأدب له أن يسطر ما يشاء ، وأن يغمر الصفحات بما يطيب له ، وأن يستثير من النزعات الانسانية ما يريد ، ومن الوان العواطف ما يرى نفسه متجهة اليه . وقد يسير بعض الادباء فى اتجاه يدور حول أشخاصهم ونزعاتهم الفردية ولا يعنون الا بالاصغاء الى داعى ميولهم وأهوائهم ، ومنهم من يجعل همه اجتذاب الاعجاب واثارة الميول وارضاء الشوق ولو دعاه هذا الى ركوب الشطط فى ايقاظ الهابط من النزعات والاسراف فى الوان رخيصة . من الادب لا تحقق الغاية التى نفشدھا

ولسنا نملك أزام هذا أن تحظر على الادباء أن يعرضوا ماشاءوا أو أن يسلكوا

(١) انظر القسم الاول من المقال فى الممد الثالث من البنية التاسعة .

من السبل ما يحبون ولسكن الذى نستطيعه انما هو توجيه الاذهان الى مقومات
الادب الصحيح ، والى العواطف ذات الشأن فى تنشيطه وتقويمه . وللنقاد فى هذا
الميدان كبير الاثر اذا صححت همهم وساروا الى القصد بخطوات سديدة

...

فإذا عسى أن تكون هذه العواطف ، وما الذى يتبعها ، أن يتوافر فيها من
شروط ؟

لعلنا لا نعدو الجادة اذا اشرنا الى أنواع من العواطف نرى أن لها شأننا فى
الادب وهى :

- (١) العواطف الاجتماعية والقومية .
 - (٢) العواطف الصادقة البعيدة عن التكاف والنصنع
 - (٣) العواطف المثقة
 - (٤) العواطف ذات الشأن فى المثل العليا للحياة
 - (٥) العواطف الفردية التى تعبر عن قدر مشترك من الميول تبحش به نفوس
الجميع من بنى الانسان .
- فهذه الأنواع مما ينهض بالادب العاطفى ويكسبه قوة ويزيده خصبا ويجعل
أثره شاملا

(١) فالعواطف الاجتماعية والقومية هى التى تخرج بانفعالات الاديب إلى ميدان
واسع ونشرها فى المجتمع وتنصل بالحياة فى شتى تراحيقها وتتجه بأمال الشعب
وميرله وجهة ترحد غاياته العامة وتربط أواصره وتكون له كالمصاييح تهديه فى
بجاهل الحياة ، وتجعل من الامة وحدة متماسكة ونفوسا مشتركة الاحساس تترنم
بأنبل النايات .

والاديب إذا حمل لواء هذا النوع من العواطف فأوضح مهمته ، وتألف هائمه
كان من أقوى بواعث الإصلاح والتوجيه إلى خير المقاصد ، فإن هذه العواطف
الاجتماعية والقومية هى القلب النابض للشعب والقوة الحافزة لأفراده وهى دليل
على وحدة الامة واكتمال مقوماتها .

وبجاء هذا النوع فسيح في الموضوعات الوطنية والحوادث التاريخية والتمهضات القومية وكذلك في حياة الريف وما فيها من ذكريات وفي آمال الشعب ومقاصده. ولعل هذا النوع من العواطف يتطلب النشاط في أدبنا الحديث . فهو دعامة الاصلاح الاجتماعى والادب القومى المرتكز على حياتنا ، التابع من البيئة التى ننسج منها نفوسنا وننقش على صفحاتها آثارنا

(٢) العواطف الصادقة :

ان من أهم صفات الادب أن يكون طبيعيا وأن يكون صادق الافصاح عن المعانى الحيوية دقيقا في تصوير النزعات النفسية وما يتغلغل في الصدر من ميول وآمال وأن يعرض لكل هذا في غير مواربة أو تكلف . أما الاديب الذى يلبس ثياب التصنع العاطفى فيجرب لسانه بما ليس في جوارحه ويبدى سرورا لا ينطوى عليه قلبه ، أو يتكلف حزنا لا يجيش به نفسه ، فإن أدبه لا يكون نابعا من القلب فلا يصادف مكانا من الوجدان .

على أننا لا نبغي أن نحصر العواطف في دائرة ضيقة يعجز فيها الاديب عن تصور آلام غيره وآماله وعن تعرف ما يجيش به النفوس من ترج أو فرح ، فانا نعتقد أنه يستطيع الاستماع بخياله وبتجاربه على التعبير الصادق عن كل ذلك ، وليكننا نرى أن المعانى التى تصدر عن الطبع والخبرة أصدق افصاحا من التى تصدر عن التكلف وتنطوى على المحاكاة اللفظية الجوفاء .

وليس معنى هذا أن الادب إذا خلا من العواطف التى تنبع من التجارب فقد خلا من عناصر القوة ، فهناك منابع أخرى قد يرتكز الادب عليها كالخيال والأسلوب والفكرة فيكون له من هذا قوة أو لون من الجمال .

(٣) العواطف المثقفة ::

لسنا نشك في أن للثقافة شأننا في العواطف وفى الادب العاطفى فان الثقافة ترشد العاطفة وتمصها من الضلال والخلط إلى حد ما . والعاطفة إذا انبرت إلى ميدان العمل وهى عزلاء من التوجيه الفكرى والارشاد الثقافى كانت جوفاء

وأصبحت أشبه بالأنين المنبعث عن الآسى والحزن أو كالترنحات التي تعبر عن المرح، أو كالسرور الذي لا يعدو بهجة سطحية كإبهاج الصبي بإجابة رغباته، أو كالميل الهوجاء التي لا ترتكز على تفكير وليس لها مرشد من ثقافة.

وأقرب العواطف إلى الضلال والهيام الشارد هي تلك العواطف التي يخلو ميدانها من الثقافة فتكون كالزهرة الذابلة، أو الأرض الجرز، أو كصورة من الجص لطائر غرد، أو كمعزق موسيقى اضطربت أوتاره وبعدت عن التجانس والانسجام.

(٤) العواطف الراقية التي تتجه إلى المثل العليا :

وهذا النوع هو أرق أنواع العواطف وأجداها وأعظمها أثرا في تحقيق نبيل النيات التي تطمح إليها الإنسانية، وتتجه إليها النفس في مظاهرها الثلاثة، وهي الحق والخير والجمال، ولكل ناحية من هذه النواحي عواطف تتجه إليها.

(٥) العواطف الفردية التي تتجلى في أغلب الأشخاص أو فيهم جميعا. وذلك أن العواطف الفردية عرضة لأن تكون مقتصرة في نفس صاحبها لا يشعر بها غيره، ولكن التشابه في ألوان الحياة، والتجانس في مظاهرها وأحوالها، يجعل من عواطف الشخص مرآة ونموذجاً لعواطف غيره، ولا سيما إذا كان صادق الحس صافي الوجدان. ولهذا يكون هذا النوع الفردي سهل الاستساغة سريع الاتصال بالنفوس.

وان قدرة الأديب على التصوير تزيد هذا النوع من العواطف تأثيراً وقوة وتجعل ما نقرؤه له مما يضمه خلجات نفسه شديد الاتصال بنفوسنا كأنه يعبر عن عواطفنا وانفعالاتنا.

أما تلك العواطف الفردية التي لا تمثل إلا هيأما ساجداً، أو حيرة شاردة، فإنها لا تميل في طياتها إلا خلجات مضطربة تتقاذفها أهواء النفس فتضل السبيل ولا تجد لها مؤثلاً.

° ° °

هذه بعض أنواع العواطف البارزة في حياتنا وفي نفوسنا وهي من الألوان الوجدانية التي تبرز بالادب فتكون له كلام للعود، وكاشد للزهرة، وكالهواء للكائنات النامية، وتسرى في نواحي الفن الأدبي فتسمو به وتجعل له شأنًا في حياة الأفراد وحياة الأمم.

وقد تكبت بعض العواطف أو المظاهر الوجدانية في نفوسنا فيضيق بها الصدر أو تعجز النفس عن احتمالها أو الاضطلاع بأعبائها فيفسح لها الادب في المجال ويكشف عنها القناع ويخرجها إلى جو الحرية فتخلق مطمئنة وتظلل الحياة بوارف من النعيم والعيش الرغد. وقد ينفذ الأديب إلى مكان آمن آلامنا فيضني عليها من فنه ما يبعث فيها بهجة وأملًا واطمئنانًا وسكينة تشرق في الصدر وتنير جوانب النفس.

وإن العواطف أشبه بآلات التصوير وزجاجها الحساس، فهي تلتقط من ألوان الحياة ومظاهرها ما يروقها، ثم تعكس كل ذلك على صفحة النفس فتخرج صوراً تكون نماذج للحياة وما فيها، وللنفوس وما يتغلغل في نواحيها.

° ° °

لعلنا بعد هذا قد أوضحنا ما بين الادب والعاطفة من صلة، وأظهرنا أن هذه الصلة إذا ارتكزت على نبيل العواطف جعلت من الادب مثلاً عذبا ومعينا فياضا للخير الانسانية.

فلننظر إلى الادب العربي على هذا الأساس لنرى حظه من العواطف، وما الذي اشتمل عليه من ألوانها:

والادب نوعان شعر ونثر وإن حظ الشعر من العاطفة أوفى، وحظ النثر من الفكرة أوفر، فالعاطفة في الشعر هي إحدى الدعامين (والثانية هي الخيال) والفكرة عون لها. وعكس ذلك في النثر. ولأسنا نقصد بالشعر الكلام الموزون، بل نقصد معناه الفني، ومن النثر على هذا ما هو شعر.

أما النثر فنه طائفة من الرسائل في أغراض شتى في الشؤون الاجتماعية والحيوية

والسياسية وفي النقد وفي الأحوال الخاصة كالشوق والاعتذار وغير ذلك. وهناك أيضا المقامات ثم الأوصاف في متنوع الأغراض كوصف مظاهر الطبيعة ووصف النفس ونزعاتها، ولا تجد من هذه الأنواع في النثر العربي إلا جانباً ضئيلاً من العواطف. على أن ما ظهر فيه منها إنما هو ذلك النوع من العواطف الفردية. وإن النوع الذي تجلت فيه بعض مظاهر الوجدان يعد أقرب إلى الأدب الموضوعي منه إلى الأدب الذاتي. أي أنه ينبع من الخارج ويمر بالمظاهر الخارجة عن النفس دون أن يمتزج بنفس الكاتب امتزاجاً عميقاً. وهو لذلك لا يصور شخصية خاصة ولا يصطبغ بلون من ألوان النفس الإنسانية. ولعله إلى الصناعة اللفظية أقرب. وأما الشعر فهو أوسع مجالاً للعواطف.

ويقسم الأفرنج الشعر إلى قصصي وغنائي وتمثيلي ومنه الفكاهات والفاجمات. أما الشعر العربي فله فنون معروفة وهي الفخر والمدح والثناء والهجاء والغزل والفنسيب والوصف والاعتذار والمجون وغير ذلك.

وجمهرة الشعر العربي من النوع الغنائي الذي يترنم فيه الشاعر بالمفاخر والمآثر ويسرد صفات فردية لمن يمدحه أو يذمه. وإلى جانب هذا موجة جارفة من الحب الصناعي غمرت الشعر في أغلب العصور العربية حتى أصبح من خصائص القصائد أن تفتتح بالغزل. وربما كان لهذا سبب، وسنعرض للبحث فيه في فرصة أخرى، وموجة ثانية في المدح استنفدت جهود معظم الشعراء. أما الأغراض الاجتماعية فلم يكن لها نصيب يستحق الذكر.

ونجد أمثلة للشعر الذي تبدو فيه العواطف في الغزل وفي بكاء الاطلال وفي الرحيل والفرار وفي الأليف وخطاب الجمال وغير ذلك من العواطف الرقيقة الحزينة أو المتصلة بالآلام والآمال. وفي دراوين الشعراء وكتب الأدب نماذج من ذلك.

وأنا نلاحظ بصفة عامة أن الشعر ينحدر بما فيه من عواطف ناحية أقرب إلى الصناعة وليست في جملتها من العواطف المتغلغلة في الحياة الاجتماعية.

هذا ، واذا أردنا أن نرسم للعاطفة طريقها القويم في الادب وأن نغري الادباء بالاهتمام بالوان خاصة من العواطف ، فان خير ما يصل بنا إلى ذلك هو أن نستعيد إلى أذهاننا ما يجب أن يحققه الادب من مقاصد وغايات :

نريد من الادب أن يصور النفس الانسانية تصويرا يشعرنا بشهرتها وخلجاتها حتى يكون ذلك مرآة لما في نفوسنا وما يمكن أن يحول بخواطرنا .

نريد منه أن يرسم الاشياء من أصدق جهاتها وأوضح مظاهرها حتى نراها عن طريق عيني الاديب ونستجليها من طريق مشاعره وصائب نظره .

نريد منه أن يكون صورة للشخصيات التي تتفتح لها القلوب وتلقى لها النفوس بالزمام وتسير معها في وديان تمتع من الانسانية في شتى مظاهرها وأحوالها .

نريد منه أن يكون خير معبر عما يحيط بنا من مظاهر طبيعية وأوضاع اجتماعية وعادات قومية حتى نجد صامت الحقائق ناطقا وكامن المعاني ظاهرا جلليا .

نريد منه أن يكون عامل هداية للبشر العليا في الحياة وهي : الحق والخير والجمال .

ونريد من الادب العاطفي أن يتجه الى النواحي التي أشرنا إليها ، وهي النواحي القومية أو القومية التي تتجلى في كل نفس ، لا العواطف الخاصة الهائمة .

هذا هو الذي نريد أن يتجه إليه أدبنا الحديث ، وهو الذي نريد أن نبحث عنه في أدبنا القديم في عصوره المختلفة ليتخذ منه المتعلون والباحثون هاديا . ومن الوسائل التي نحقق هذا أن يكون الادب خير ترجمان للانسانية وجليل صفاتها .

ولعل ما أوضحنا من الوان العواطف يكون موانا على بعض نواحي النقد الادبي وحافرا على الاشادة بطائفة من فنون الادب نرقب لها النشاط .

ولعل هذا الجانب الوجداني ينال ما يستحق من عناية ورعاية من المهتمين بالنقد الادبي حتى يخرج النقد إلى ميدان فسيح ولا يكون مقصورا على اللفظ والديباجة .

ولعل النقد المخلصين للفن وهم دعائم الاصلاح يرسمون للنقد خطة قومية حتى نظفر بخير ألوان الادب وأروع فنونه .

عبد الحميد محمد